

*Ahmed Idrees | أَحمد إِدريس

في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية

On the Meaning of Land: Restoring the Palestinian Self

عنوان الكتاب: في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية

المؤلف: بلال عوض سلامة.

الناشر: الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 207

* باحث. حاصل على الماجستير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من معهد الدوحة للدراسات العليا.

Researcher. He Holds a Master's Degree in Sociology and Anthropology from the Doha Institute for Graduate Studies.
Email: aha013@dohainstitute.edu.qa

مقدمة

 تُعدُّ الأديبيات التي تناولت موضوع الأرض نادرةً في السياق العربي، وفي حقل السوسيولوجيا خاصةً، باستثناء السياق الفلسطيني باعتباره سياقاً استعمارياً استيطانياً تمثّل الأرض فيه عاماً محورياً في تشكيل العلاقات الاجتماعية على المستويات كافة. يأتي في هذا الصدد كتاب في معنى الأرض: استعادة الذات الفلسطينية الذي يعالج سوسيولوجياً موضوعة الأرض بوصفها ظاهرةً كليّة، ينسج المؤلف حولها كامل المتغيرات التي تركب ظاهرة الصراع الاستعماري في فلسطين.

من خلال المنظور الديكولونيالي، ومنظور نقد النيوليبرالية في السيطرة والهندسة الاجتماعية. لذا يُدرج الكتاب ممارسات السيطرة والمقاومة التي تكون الأرض والعلاقة بها موضوعها، ضمن نظام كليٍّ من السيطرة الاستعمارية. وبيني المؤلف نظريًا على أطروحتات كل من فرانتز فانون Frantz Fanon وميلاني كلاين Melanie Klein وأشيل ميمبمبى Achille Mbembe حول ديناميات السيطرة والمقاومة في السياق الاستعماري والنيوليبرالي، إضافةً إلى الاستثناء بمداخلات "الموت الاجتماعي" كما طورها ميمبمبى ومالكوم إكس X Malcolm X (ص 9).

يعالج الكتاب "قضية الأرض بوصفها قيمة معنوية ومادية للفلسطيني التي تحقق الكرامة له وتضمنها" (ص 10). ويُبيّن تمثيلاتها لدى الناس بوصفها قيمة، سواءً لذاتها (رمزية)، أو لقيمتها النفعية (مادية)؛ أي وسيلة إنتاج يقوم عليها وجود الجماعة الفلسطينية وإعادة إنتاجها لذاتها، مع إضافة أن هذا التمثيل محمول على سياق النظام الاستعماري وعلاقاته. ويبحّث المؤلف بأنه لا يمكن اعتبار السيطرة الاستعمارية على الأرض ممارساتٍ سلطويةٍ ماديةٍ هدفها الأرض في ذاتها فحسب، بل هي استراتيجيات وتقنيات تستهدف السيطرة على الفلسطيني إنساناً في المقام الأول، والسيطرة على الأرض بوصفها قيمةً ومقوم إنتاج مادي أيضاً.

أولاً: الأرض قيمةً في السياق الاستعماري

يتمثل مفهوم الأرض لدى المستعمر والمستعمَر، ثم مقوله العلاقة الوجودية بالأرض لدى الفلسطيني، محوراً مركزياً، تتشابك حوله جميع المداخلات

"فتاريخ المقاومة والصراع وبداية الفعل الوطني - وإن كان عفوياً - بدأ بأول احتجاج لل فلاحين ومقاومتهم للأطماع الصهيونية في عام 1886 [...] الفلاح الفلسطيني أول المبادرين إلى مقاومة المشروعات والسياسات الصهيونية الهدافـة إلى سلب الأرض من أصحابها، لما تشكّله من خطورة على مصيره وجوده، ومن تساؤل حقيقي حولهما" (ص 8-9). يمكن قراءة هذا الاقتباس على أنه محاولة المؤلف تأطير موضوعه ضمن حقل دراسات المجتمع الفلاحي⁽¹⁾، وذلك بالتركيز على تمثيلات الأرض وارتباطها بخصوصيتها في سياق استعماري. ويوظف المؤلف إطاراً نظرياً يقوم بالأساس على الإرث الفكري الديكولونيالي لمقاربة موضوع الأرض ضمن السياق الاستعماري الصهيوني، باعتباره سياقاً نوليبرالياً يمكن قراءته قراءةً مركبةً وكليةً.

(1) يمثل المجتمع الفلاحي مبحثاً في السوسيولوجيا الريفية. ينظر مثلاً:

Teodor Shanin, "Peasantry: Delineation of a Sociological Concept and a Field of Study," *European Journal of Sociology*, vol. 12, no. 2 (1971), pp. 389–300.

السكاني والمخيّمات في الحالة الثانية تمظّهراً لمنطق واحد في فصل علاقه السكان الأصليين بالأرض (ص 22)، وإلغاها بصفتها حاملة للهوية والانتماء، بغرض تطويق هؤلاء السكان بيوسياسيًا وتحوّيلهم إلى ذوات لاسياضية بالمفهوم الفوكي (نسبة إلى ميشيل فوكو Michel Foucault).

الفرعية المؤلفة لأطروحة الكتاب (كما يتبيّن لاحقاً)، والمتمثلة في إعادة طرح الأرض بصفتها قيمةً رمزية في الصراع الاستعماري في السياق الفلسطيني. يعلّق المؤلف أمر علاقات الأرض في السياق الاستعماري في فلسطين على الفجوة بين المفهوم القانوني للأرض، القائم على وثائق الملكية والحيازة من جانب المستعمر الإسرائيلي، والمفهوم الوجودي لدى الفلسطينيين، الذي لم يضطرّهم إلى إثبات موقف قانوني في علاقتهم بالأرض، فهي في كياناتهم الجماعية والعلاقة بها تسري في عصيونات الوعي الجماعي للفلاحين الفلسطينيين. وهذا الموقف من قوة الشعور بالأرض، والارتباط بها وجودياً، هو ما سيختزن على السواء حياة الفلسطيني وموته. وهذا النبض بالأرض هو ما سيمثل هدف سياسات السيطرة وممارساتها في المنطق الاستعماري الإسرائيلي، وحقلاً لتطبيق سياسات "عقيدة الصدمة" التي طورتها نعومي كلاين Naomi Klein لفهم منطق الرأسمالية النيوليبرالية في إخضاع الشعوب، واستعارها المؤلف لفهم منطق الاستعمار الإسرائيلي في كثافة الجرائم والمجازر والسلب ونهب الأرضي واستيطانها، باعتبارها حالة من فرض واقع الصدمة في الوجود والمصير لدى الفلسطيني، بهدف خلق استلال في مفهوم الذات والذاكرة والثقافة المرتبطة بالأرض؛ بغية تسهيل هندسته اجتماعياً، بالتركيز على سياسات الأرض وإعادة ترتيبها وامتلاكها والسيطرة عليها (ص 20). وهنا يؤسس المؤلف مقاربة، يمكن قراءتها بصفتها محاولة متbusرة، بين ممارسات التنظيم الفضائي في كل من الجمازير وفلسطين بصفتها سياقات استعمارية. وذلك من خلال قراءة استراتيجيات المحتشدات في الأولى، وسياسات التجزئة الاستعمارية والتركيز

1. بالنسبة إلى المستعمر

يني المؤلف مداخلته في الفصل الأول الذي يهدف فيه إلى تبيان معنى الأرض وقيمتها للمستعمر، إلى حد بعيد، على الطرح الذي قدّمه فانون حول قيمة الأرض ووظيفتها في علاقة المستعمر بالمستعمر، وذلك من خلال رد الأرض إلى قلب التفكير القيمي بربطها بالعمل بوصفها قيمة، لا يستهدف المستعمر نفسها لدى المستعمرين بصفتها وسيلة إنتاج مادية فحسب، إنما أيضاً ليُدخل فعل الاستيلاء بوصفه بنية نفسية إلى الكيان الاجتماعي والنفسي لديهم، "احتلال الأرض يتزامن مع احتلال عقول المستعمرين وأجسادهم" (ص 17). وهنا يقابل المؤلف بين مفهوم فانون للأرض والمفهوم الماركسي الذي يوضعها مادياً بوصفها وسيلة إنتاج، باعتبار أن فانون يضيف إلى الأرض قيمة تربطها بالحياة والوجود، وذلك تأسساً على العلاقة الشعورية بين الفلاح والأرض. ومن ثم، يسحب المؤلف الأرض، بمعية فانون، إلى قلب البنية الفوقيّة للمستعمرات. ومن خلال المقابلة بين هذين المفهومين، ينحاز المؤلف إلى الهدف الذي أعلنه في مقدمة بحثه، بتركيزه على أشكاله تستوعب المقاربة المادية الممحضة لموضوعة الأرض، وتجاوزها في آن، وتوجه نحو التفكير في الأرض موضوعاً لممارسات الحداثة/ الاستعمار ضمن المقاربة الديكولونيالية. وينظر هذا الاتجاه

وممارسات يومية لدى المجتمع الفلسطيني، حول الأرض، وذلك "اعتماداً على مقوله إن البنية الفوقيه هي تعبير مكثف لنمط الإنتاج" (ص 29). ويدفع في ذلك ادعاءً تاريخياً مفاده أن هذه العلاقة التشكيلية بين الأرض والبنية الفوقيه في السياق الفلسطيني تمتد من العهد العثماني حتى التطهير العرقي في عام 1948. لكنه لا يسوغ لنا هذا "الاعتماد" تحليلياً، ولا يعكس لنا كيف يمكن أن يتکامل هذا التمشي النظري في الطريق التي شقتها الماركسية ضمن المنظور التحرري الذي تبناه في إعادة موضع الأرض بصفتها قيمةً في ذاتها.

من أجل بناء المؤلف حجته التي قدمها استناداً إلى الزاد الماركسي، فإنه يعيد قراءة أشكال التنظيم الاجتماعي في السياق الفلسطيني باعتبارها أشكالاً تقوم بنبيوياً على العلاقة مع الأرض، وتتراوح بين العشائرية وشبه الإقطاعية، بنمط إنتاج زراعي شبه إقطاعي وأساليب عيش فلاحية⁽³⁾. وإذا كانت هذه الممارسات الاقتصادية تمثل دورة متكاملة، فإنها تتطلب أيضاً وحدة إنتاج ممثلة في العائلة بصفتها قوة متحركة، يحدوها الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي، حتى تغرس في البنية الفلاحية للثقافة الفلسطينية التي سیحاول المؤلف بناء ادعاء جريء حولها. وكل هذه العناصر (العائلة بصفتها وحدة إنتاج والممارسات الاقتصادية ومبدأ الدورة) "مرتبطة بالأرض وبمحصولها كحلقة متكاملة يعتمد بعضها على بعض" (ص 30). ويهدف المؤلف من هذا الربط المادي بين الأرض وحياة الفلاح إلى تجذير المعنى الرمزي والكيف الذي بناء للأرض بالنسبة إلى الفلسطيني.

(3) تدور حول الفلاحة وجملة الممارسات المرتبطة بها كإنتاج الألبان والأجبان والأسمدة وتربية الحيوانات.

لدى المؤلف في تشميه موقف فانون تجاه قيمة العلاقة بين الفلاح والأرض، القائمة على شيء من التذاوت؛ فهي تبادلية متكافئة تقوم فيها الأرض ذاتاً تعدي هوية الفلاح، فـ"الفلاح حين يعمل في الأرض يأخذ الحياة منها، 'ويعيدها إليها ... لتعيدها إليه'"، بينما نجد المستعمر الرأسمالي "يحول الأرض سلعة تجارية تستنزف مقومات الحياة فيها" (ص 17). وهو ما يفسر به المؤلف الطبيعة الرأسمالية الاستعمارية للحركة الصهيونية؛ كون بداية دخولها إلى فلسطين كان من بوابة المسألة الزراعية عبر الجمعيات والشركات العاملة في مجال الاستثمار الزراعي.

2. بالنسبة إلى المستعمر/ الفلسطيني

يهدف الفصل الثاني "الأرض الفلسطينية كقيمة وجود" إلى الانشغال بموضوع التمثيل القيمي للأرض، ضمن جهاز القيم الفلسطيني، وليس بالنسبة إلى الاستعمار الإسرائيلي⁽²⁾. يحشد المؤلف كل الدلالات الثقافية التي تكشف قيمة الأرض رمزاً، وذلك بالرجوع إلى المنجز الثقافي الشعبي وميثولوجيا الأرض في فلسطين، من قبيل أحمرار الأرض لارتفاعها بدماء الشهداء، وارتباط الأرض في المخيال الفلسطيني بالزيتون رمزاً للمقاومة. ثم يحاول المؤلف موقعة كل مركبات البنية الفوقيه، من علاقات اجتماعية وأنظمة ثقافية

(2) على الرغم من المسافة البينية التي اتخذها المؤلف من التحليل المادي الماركسي عند تأثير النظري لموضوع بحثه، فإنه يعود فيقرأ قيمة الأرض ووجودها للفلسطيني انطلاقاً من مدخل ماركسي، وإن لم يستند في ذلك المدرونة الماركسيّة بوضوح، ويمكن قراءة ذلك في سياق تأثير المؤلف مختلف المداخل النظرية التي يؤسس عليها المداخلات الفرعية (نظريّة الصدمة لنوعيّي كلاين مثلاً) ضمن إطار أشمل يعتبره المنظور الذي يستهدي به في توظيف مختلف المقولات النظرية.

ثانيًا: سيطرة على الإنسان عبر السيطرة على الأرض

بعد قراءة الأرض مفهوماً وقيمةً في العلاقات الاستعمارية، يُحلل المؤلف في الفصل الثالث السيطرة الاستعمارية على الإنسان الفلسطيني التي مورست عبر استهداف أرضه. وهنا يبني على مداخلة بنوية اقترحها رائف زريق، تفهم علاقات الأرض بوصفها تكثيفاً لتاريخ الصراع الاستعماري في فلسطين، امتدّ هذا التكثيف منذ العقبة العثمانية، وصولاً إلى آخر نسخة من الاستعمار الصهيوني (ص 37). يبني المؤلف على هذه المداخلة في قراءة محطات من تاريخ ممارسات الاستعمار الصهيوني على الأرض الفلسطينية، وصولاً إلى نكبة عام 1948 التي يقرؤها بوصفها بداية التأسيس لعقيدة الصدمة ونسف العالم المأمول للفلسطيني ونظرته إلى ذاته بغية تطبيقه (ص 47).

تهدف الصدمة، في نظر المؤلف، إلى إفراغ الأرض الفلسطينية من سكانها، وهو "هدف جوهري في عقيدة الحركة الصهيونية" (ص 44). وإذا كانت صحة هذه المقدمة تستند، لديه، إلى ممارسات تاريخية، فإن بنوية منطق السيطرة الاستعمارية قد تحولت، حيث يستوعب ممارسات تدجين قوة عمل السكان الذي وجّد الاستعمار نفسه في حاجة إليها، شرط تدجينها ضمن النظام الاقتصادي الاستعماري عبر طائفة من ممارسات أنظمة التنقل والممارسات المكانية⁽⁴⁾. وما يلفت انتباه المؤلف من هذه الممارسات هو أثرها في تمثيل الأرض والمعنى الذي تفرزه للمكان من حيث هو عنصر

في العلاقات الاستعمارية⁽⁵⁾، وعلاقة كل ذلك بهوية الفلسطيني وعناصرها الواقعية والمحضلة. تتشابك تلك الخيوط الاستعمارية كافة، لتنسج مشهدًا فلسطينيًّا يقوم على الهندسة الاجتماعية التي يصفها المؤلف في أربعة مستويات متشابكة: هندسة مكانية تستهدف السيطرة على الأرض عبر قوانين الأراضي والسياسات الحدودية والتقطيع الجغرافي؛ واقتصادية تسيطر على أدوات وقوه الإنتاج الزراعية والصناعية والسوق؛ وسياسية تقوم على نظام عنصري من الديموقراطية الإثنية؛ وهندسة بيوسocialisية تعكس السيادة الاستعمارية على الجسد الفلسطيني وضبطه. وفي واقع الأمر، لا يأتي المؤلف في ما سبق بطرح جديد، سوى قراءة ما تتوفر من أدبيات فلسطينية أُنجزت عن هذه الأنماط من الهندسة الاجتماعية. بينما تمثل مساهمة المؤلف الأساسية في مفهمة سياسات الهندسة الاجتماعية هذه، حيث تمثل، إلى جانب المعنى للأرض في السياق الاستعماري، ومفهوم المثقف الفلاح كما سيأتي، أحد أهم الأضلاع الثلاثة لمداخلة الكتاب.

يقارب المؤلف هذه الهندسة الاجتماعية، باطلاعه على سياقات استعمارية أخرى، من خلال استعارة مفهومين؛ "المحشّدات" و"السبات الاستعماري". تشير المحشّدات إلى "أماكن الفصل الممنهج للقرى والمدن والمخيمات والتجمعات الفلسطينية وعزل بعضها عن بعض" (ص 45-46)، ويشمل ذلك التجمعات السكانية في الجغرافيا الفلسطينية كافة في أراضي فلسطيني عام 1948 و1967، وسياسات التجزئة الاستعمارية الحالية بين قطاع

(5) يفرد المؤلف كتابه اللاحق لدراسة المكان ودوره في المقاومة المدنية بالتركيز على الحالة المقدسة، ينظر: بلال عوض سلامه، في معنى المكان: وهي من دروس المقاومة المقدسة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2023).

(4) وليد حباس، "الاستعمار الاستيطاني: نحو إطار نظري جديد"، قضايا إسرائيلية، مج 17، العدد 66 (تموز / يوليو 2017)، ص 126-125.

في تشكيل قيمه - إنما "في وظيفته المجتمعية وانتمائه إلى عموم الشرائح المقهورة والمهمشة والفقيرة وال فلاحين، من منطلق أن بنية فلسطين فلاحية ووسيلة الإنتاج الأساسية فيها هي الأرض" (ص 123). إذًا، فالأرض والانتماء إليها والاستعداد للتضحية وبذل الذات من أجلها، هو ما يعرّف موقع المثقف الفلاح، ووظيفته ذات الطبيعة المزدوجة في نقد كل من المجتمع والنظام الاستعماري.

ولئن كان مفهوم المثقف الفلاح يقطع مع الإرث النخبوi في تعريف الثقافة والمثقف، كالاتجاهات الماركسيّة الكلاسيكية والليبرالية التحررية (ص 115) في اتجاهها التمثيلي للفلاح عبر المثقف المدني، فإنه يمتحن من موقف واضح للمؤلف في إعادة الاعتبار للفلاح الفلسطيني في الدخول إلى دائرة الفعل وتشكيل الثقافة الشاملة للمجتمع. ويمكن أن يتساءل القارئ هنا: إلى أي حد سلم المؤلف نفسه من هذا الموقع التمثيلي في رد كل الثقافة الفلسطينية إلى الجذر الفلاحي؟ إذ يتوارى في طرح المؤلف الإرث النقدي لدراسات التابع Subaltern، على الرغم من أنه لم يُحض نقاشاً صريحاً مع هذا التيار، الأمر الذي كان يمكنه إثراء المفهوم، وأثر الاشتباك مع التراث المحلي الفلسطيني ليبني مفهومه في الأساس على مفهوم "المثقف المشتبك" الذي تطور ضمن أعمال غسان كنفاني (1936-1972)، وتجلّ عبر ممارسات نضالية لمثقفين فلسطينيين شهداء آخرين مثل باسل الأعرج (1984-2017)⁽⁶⁾. كما كان في إمكان

غزة والضفة الغربية وداخل الضفة. ويتضمن ذلك سياسة مركبة من الحشد والعزل والرقابة، نتاجها الموضوعي هو بنية اجتماعية واقتصادية هشة للوجود الفلسطيني (ص 66). وتحترن هذه البنية لدى المؤلف تركيبًا جدلیاً من البؤس والركون إلى جانب كل أسباب الثورة الخالقة للتحرر التي لن تكتمل إلا بإدراك الفلسطيني أهمية الأرض لوجوده ومصيره ومستقبله.

أما السبات الاستعماري، فيمثل محصول عمل ممارسات السيطرة في الذات الجماعية الفلسطينية، وهو موت اجتماعي فلسطيني بدرجة مخففة، وذلك حين تنفك عُری ما يعتبرها المؤلف الثلاثية المقدسة (الأرض، والتاريخ، والذاكرة)، فقدان أحد هذه العناصر - الأرض بالنسبة إلى المؤلف هنا - سيؤدي إلى عيش الفلسطيني، ولا سيّما قواه السياسية والثقافية، "في منطقة تراوح حيناً بين الفاعلية السياسية والمقاومة، وبين التأكّل الذاتي وعدم الجدوi والشعور باللاقوة السياسية حيناً آخر" (ص 93). هذه المنطقة هي ما يعرفها المؤلف بالسبات الاستعماري، موظّعاً أطروحتات الموت الاجتماعي لدى كل من أورلاندو باترسون Orlando Patterson ومبيمي ومالكوم أكس (الشيخ شاباز).

ثالثاً: فلّح الثقافة ومفهوم جديد للمثقف

بناءً على المقدمة التي ينهض عليها الكتاب، والمتمثلة في مركزية الأرض موضوعاً للصراع الاستعماري في فلسطين، يطرح المؤلف مفهوم المثقف الفلاح مساهمةً في بناء الثقافة الفلسطينية في عمومها على أساس فلاحي. ولا يتحدد موقع هذا المثقف وتعريفه على أساس هوياتي بانتمائه إلى البنية الفلاحية - على الرغم من أهميتها

(6) يعني المؤلف ذلك بعد تبصرات معتمدة ونقدية حول شروط الفعل الاجتماعي في ضوء ما يشيره السياق الفلسطيني من تحديات نقدية على سؤال الفاعل الاجتماعي وموقعه. ينظر: بلال عوض سلام، "الفاعل الاجتماعي: رؤية نقدية في ضوء تحديات المشهد الفلسطيني"، المستقبل العربي، مج 37، العدد 431 (كانون الثاني / يناير 2015)، ص 54.

عليها. وينطلق المؤلف في ذلك من الموقف ذاته الذي أعلنه في بداية هذا الفصل حول ما يجب أن تتشكل عليه الثقافة الفلسطينية في مبناهما ومضامينها القيمية الفلاحية إن ابتعت تصليب عودها النضالي. ويستند هنا إلى اتجاه تعددي مساواتي في مفهوم الثقافة، قائم على التهجين بين ثقافة النخبة المدنية وثقافة الجمهور الفلاحي، بين القيم الفردية والقيم الجماعية التي يربطها بالضرورة بالثقافة الفلاحية. ويقرأ في ضوء ذلك تقاطعات الدين والوطني والفلاحي ضمن أحداث المشهد النضالي الفلسطيني وشخوصه من ثورة البراق (1929) التي ابتدأها الفلاحون حتى حركات العودة والمراقبة في هذا العقد من القرن الحادي والعشرين (ص 138-142). وعند هذه النقطة، يمكن التساؤل عن غياب النقاش المحايث - في ما وراء المقاربة مع السياق الجزائري - لما تطور حول علاقة الدين بالفلاحي في سياق الثورة في المشرق العربي، ولفت الانتباه إلى أهمية السياقات المشرقة ذات التركيب المتداخل مع فلسطين في علاقات الأرض وخضوعها لأنظمة الولاية العثمانية نفسها؛ مثل السياق السوري⁽⁸⁾.

من جهة أخرى، يقرأ المؤلف منعطفات مشهد المقاومة الاستعمارية الذي يجب تحرّي مظانه في القيم الفلاحية، من خلال الفن والأدب الفلسطيني، بوصفهما مخزوًناً للذاكرة الجمعية، وميداناً لبناء الذات والهوية الفلسطينية. وفي هذا

المؤلف خوض نقاش مع المنجز العربي المحايث والراهن من حركة البحث حول سؤال المثقف ودوره في ضوء التحولات الجديدة في السياق العربي⁽⁷⁾.

لم يختلف المؤلف في طرحة عماراتكم من مقولات حول دور المثقف، بل مضى بجرأة غير مسوَّغة في إساغ مجموعة قيم تربطه جوهريًا بالبنية الفلاحية من دون تعقيدٍ تحليليًّا - باستثناء مبدأ التهجين الإيجابي بين ثقافة الجمهور وثقافة النخبة، الذي يبني فيه المؤلف على ت. س. إليوت T. S. Eliot - يُجذّر هذا الربط في التراث النظري لأدبيات الدراسات الفلاحية؛ فلا يُفهّم مثلاً كيف تدخل قيم الكراامة والتضحية والجسارة والبطولة وـ"الجدعنة" التي اعتبرها المؤلف ضرورية في مواجهة النظام الاستعماري، فضلًا عن الجمعوية، جوهريًا في تركيب الثقافة الفلاحية، حيث تصلح "تجسيدًا للحقيقة الوطنية" (ص 125)، وغضّ النظر عن الأفانيم الأخرى للثقافة الفلسطينية المنبثقة من أنماط المعاش إلا من زاوية امثالها لقيم الثقافة الفلاحية؛ إذ لا تكفي المؤلف أخلاقيّة الموقف الأيديولوجي من وراء كون هذه القيم تُعدّ ضرورةً من أجل القطع مع "السبات الاستعماري" في فعل الثورة الفلسطينية (ص 126).

يتقدم الفصل بعد ذلك، ليتتساج مع العناصر المؤلفة لمشروع الكتاب عبر تحليل تاريخي، ويجتهد المؤلف خلاله في الربط بين محطات مختلفة من مسيرة المقاومة الفلسطينية للنظام الاستعماري، وتأنويلها تأويلاً يستند إلى كشف العناصر الفلاحية المغيبة والمهمَّشة التي تنطوي

(8) مثل دراسة حنا بطاشو عن الفلاحين وتركيبهم الاجتماعي، ولا سيما الجزء المتعلق بالعلاقة بين الصوفية والفلاحة. ينظر: حنا بطاشو، *فلاحو سوريا: أبناء وجهائهم الريفين الأقل شأنًا وسياساتهم*، ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبendi (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 203-215.

(7) ينظر مثلاً: دور المثقف في التحولات التاريخية (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017).

مداخلات نظرية أخرى، ترتبط بمشكلة البحث، وكان يمكن أن تُثريه نظريًا في معالجة المشكلة. فالاتجاه الشمولي الذي تبناه المؤلف ألغى مداخل مايكروية ترتكز على العمليات الدقيقة التي تتموضع من خلالها الأرض في علاقات السلطة في السياق الاستعماري. لم يتعرض الباحث مثلاً لأدبيات الدراسات المكانية لفهم "شيمة الأرض" (موضوع الكتاب) بوصفها "فضاء" Space، وكيف تعمل علاقات السلطة في إنتاج الفضاء وتشكيله والسيطرة عليه. هذا فضلاً عن الإرث الفوكي حول فعل السلطة في المكان عبر استراتيجيات المراقبة وتصنيف المكان وتقطيعه، وهذا إرث نظري قد تطور إمبريقياً في السياق الفلسطيني بصورة ملحوظة، مقارنةً بأي سياق آخر في العالم⁽⁹⁾. وهنا يمكن إضافة ملاحظة أن المؤلف لم يجر نقاشاً أفقياً مع ما أنجذ عربياً في مرتكزاته النظرية، ويوضح هذا الأمر في مدخل "الموت الاجتماعي"، وتحديداً الكتابات الفلسطينية المتأخرة⁽¹⁰⁾. كما يمكن وصف مسح المؤلف للأدبيات العربية السابقة بالانتقادية؛ إذ وكتب جزئياً (في الفصل الثاني والثالث

الجانب، يبني افتتاحاً أكبر وتوظيفاً أكثف للتراص المحلي حول أدبيات الهوية والذاكرة الفلسطينية، ليتنهي بإعلان صريح حول التأويل الفلاحي لاستعادة الذات الفلسطينية، بقوله: "إن استعادة الذات الفلسطينية وحضورها كانا من خلال العودة إلى الأرض وإلى ثقافتها في الفعل المقاوم التي تجسدت في الصمود والصمود المقاوم للذين أنتجوا قيمًا ثقافية تشاركية" (ص 155). واختتم كتابه بما يشبه المانيفيستو، يعلنه حول التنمية المستندة إلى الأرض، بوصفها مربط الفرس في استعادة كرامة الفلسطيني المفقودة، بانتزاع وسيلة الإنتاج الأساسية وقيمتها التي تكفل الخبز والكرامة (ص 163).

رابعاً: مناقشة نقدية

انطلاقاً من المقترن الذي قدمه المؤلف والمتمثل في دراسة الأرض في السياق الاستعماري في فلسطين، ليس باعتبارها "موضوعاً مادياً بالمعنى الوضعي فحسب، إنما الأرض بصفتها قيمة في ذاتها والموقع الذي تحتله في الصراع الاستعماري أيضاً، فإن تقديم موضوع البحث - فيرأي - يمثل أوضح عناصر القوة في الطرح الذي قدّمه بلال عوض سلامة في كتابه. هنا إضافة إلى شمولية المقاربة النظرية التي تعالج موضوع ممارسات السيطرة على الأرض، ضمن سياق كلي يحتاج إلى تقدّم جذري للشرط الاستعماري بكليته، وليس قراءةً جزئية للممارسات والاستراتيجيات. لكن ذلك يأخذ قوته من ناحية الاتجاه Approach نحو أشكاله موضوع البحث، وليس من ناحية المعالجة التحليلية، فهذه يمكن أن تكون موضوعاً بعض التدخلات النقدية.

أول زوايا النقد هي حاجة الإطار النظري إلى

(9) يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى الأبحاث المنجزة عن السياسات الحيوية والمرأة والحدود وجدار الفصل العنصري في السياق الفلسطيني. منها على سبيل المثال لا الحصر:

Umut Ozguc, "Beyond the Panopticon: The Separation Wall and Paradoxical Nature of Israeli Security Imagination," Paper Presented at the Australian Political Studies Association Conference, "Connected Globe: Conflicting Worlds," University of Melbourne, Melbourne, 27-29/9/2010.

(10) مثلاً، عالج إسماعيل ناشف مسألة "العودة" لدى الجماعة الفلسطينية بوصفها فعلاً ينطلق من غريرة الحياة واستراتيجية ضد الموت الاجتماعي، المتمثل في عجز المجتمع عن إدارة شؤون موته بنفسه. ينظر: إسماعيل ناشف، صور موت الفلسطيني (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2015).

مع الماركسية، فإنه لم يقم على نقاش صريح مع المدونة الماركسية، حيث تتطور تحليلياً كخيار نظري. وهذا يعكس التعامل مع المدخل الماركسي بوصفه معطى وملائماً بما لا يستدعي نقاشاً لفهم حالة الأرض وانتظام الأبنية وال العلاقات الاجتماعية عليها. باستثناء استناد الباحث إلى تنبيرات فانون الذي سَلِّمَ من هذا التعامل غير المسوغ مع الاتجاهات النظرية، ويمكن أن يعكس ذلك تمكّن الباحث من الإرث الفانوني وتبنيه موقفاً نقدياً ومنظوراً عاماً، وليس خياراً نظرياً؛ الأمر الذي انعكس في هضم المؤلف لهذا الإرث وتطوير حساسيات ومراصد للمشاهدة بالارتکاز عليه. مع ذلك، فإن اتكاء الباحث على فانون يفتقر إلى مواكبة الإنتاج النظري في هذا الاتجاه، الذي وإن كان فانون يمثل شعلته الباعثة، فإنه قد مضى لآفاق أعقد، على أيدي الرواد المعاصرين لمدرسة النقد дидيكولونيالي الذين ربطوا بين الحادثة الرأسمالية والاستعمار⁽¹¹⁾.

في ما يتعلق بالحالة الإمبريالية؛ وهو معنى الأرض في السياق الفلسطيني، فإن الباحث قد تعامل مع ثيمة الأرض باعتبارها كتلة صماء تتبع معنى متجانساً وستاتيكياً. فلا يؤثر عامل الزمن وتباين الأجيال داخل الجماعة الفلسطينية في إنتاج تنويعات من معنى الأرض، ولا يختلف هذا المفهوم والمعنى للأرض عبر تقسيمات الكيان الجماعي الفلسطيني ذي الكتل المتعددة مكانياً

(11) يُنظر مثلاً:

Walter D. Mignolo, "Delinking: The Rhetoric of Modernity, The Logic of Coloniality, and the Grammar of De-Coloniality," *Cultural Studies*, vol. 21, no. 2-3 (2007), pp. 449-514; Nelson Maldonado-Torres, "On the Coloniality of Being: Contributions to the Development of Concepts," *Cultural Studies*, vol. 21, no. 2-3 (2007), pp. 240-270.

خاصّةً) المنجز المعرفي العربي في الأدبيات التي عالجت ممارسات السيطرة الاستعمارية الإسرائيليّة (وعلاقتها بالهوية والثقافة والطبقة الوسطى والتغيير الديموغرافي، وغيرها)، وارتباط تلك المتغيرات بمعادلة الصراع الاستعماري، إلا أنه لم يُبَيِّن على الأطروحتات ذات الطبيعة النظرية التي أُنْتَجَت عربياً، تحديداً أطروحتات الموت الاجتماعي، وأثر الارتكاز نظرياً على أدبيات باكرة نسبياً.

على صلة باللحظة السابقة، يغيب النقاش الجدّي مع المدونة التي استلّ منها الباحث مرتكزاته النظرية، حيث يربط من خلال المقاربة بين المقولات التحليلية لتلك النظريات وخصائص السياق محلّ الدراسة، على الرغم من أنّ المحك منهجي يتطلّب دائماً فحص المسوغات التي تجعل من تبني الخيار النظري دون غيره هو الأنسُب لتحليل الحالة محل الدراسة وتفسيرها، ولا يكفي الاستناد إلى التماسك والاتساق الداخلي لبنيّة النظرية. واتضح هنا الأمر جلياً عند توظيف مفهوم "عقيدة الصدمة" لنعومي كلain، فلم يوضح لنا الباحث تحليلياً كيف يمكن أن يكون السياق الفلسطيني سياقاً نيوليبراليّاً مكملاً، حيث يصلح حقاً للمقاربة وفقاً لممارسات عقيدة الصدمة الذي اقترحته كلain، واكتفى في المقاربة بالاستدلال على عنصر الكوارث والفظائع التي تمثل عنصراً واحداً في هذا المدخل.

جانب آخر، من غياب التسويف التحليلي لدى الباحث، انعكس في توظيفه مدخل التحليل المادي الماركسي، ففضلاً عن أنه يهز ويتشوش تركيب الإطار النظري المقدم سابقاً، الذي يمارس ما يشبه التجاوز، إن لم يكن القطيعة

الفلسطيني، يكاد لا يمثل أي متغير تحليلي في معالجة ثيمة المعنى الاجتماعي للأرض. وذلك ضرب من التفكير البنيوي المغلق؛ لأن معنى الأرض تتوجه ديناميات تختلف بحسب ما تمثله الأرض في كل سياق زمانياً ومكانياً، حتى وإن كان الأمر داخل المجتمع.

Spatial. لذلك وجدنا الباحث قد تبع علاقات الأرض منذ فلسطين العثمانية، فالاستعمارية الانتدابية، فالصهيونية بأدوات التحليل نفسها، ثم إن حضور السياقات المكانية المختلفة (فلسطين الداخل، الضفة الغربية، قطاع غزة، وأراضي اللجوء والمهجر) التي تؤلف فضاء المجتمع.

References

المراجع

العربية

- بطاطو، هنا. **فلاحو سوريا: أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأناً وسياساتهم**. ترجمة عبد الله فاضل ورائد النقشبندي. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.
- حباس، وليد. "الاستعمار الاستيطاني: نحو إطار نظري جديد". **قضايا إسرائيلية**. مج 17، العدد 66 (تموز/ يوليو 2017).
- دور المثقف في التحولات التاريخية**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- سلامة، بلال عوض. "الفاعل الاجتماعي: رؤية نقدية في ضوء تحديات المشهد الفلسطيني". **المستقبل العربي**. مج 37، العدد 431 (كانون الثاني / يناير 2015).
- _____. **في معنى المكان: وحي من دروس المقاومة المقدسية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2023.
- ناشف، إسماعيل. **صور موت الفلسطيني**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

الأجنبية

- Maldonado-Torres, Nelson. "On the Coloniality of Being: Contributions to the Development of Concepts." *Cultural Studies*. vol. 21, no. 2–3 (2007).
- Mignolo, Walter D. "Delinking: The Rhetoric of Modernity, The Logic of Coloniality, and the Grammar of De-Coloniality." *Cultural Studies*. vol. 21, no. 2–3 (2007).
- Ozguc, Umut. "Beyond the Panopticon: The Separation Wall and Paradoxical Nature of Israeli Security Imagination." Paper Presented at the Australian Political Studies Association Conference. "Connected Globe: Conflicting Worlds." University of Melbourne. Melbourne, 27–29/9/2010.
- Shanin, Teodor. "Peasantry: Delineation of a Sociological Concept and a Field of Study." *European Journal of Sociology*. vol. 12, no. 2 (July 2009).